الجزء الثاني

المسمى بـــــ«كشف المخبا عن تمدن أوربا»

أقول -بعد الحمد لله-: إنه في الساعة العاشرة من صباح السبت الموافق لثاني يوم من أيلول سنة ١٨٤٨م، سافرنا من مالطة إلى إنكلترا، وبعد نحو ساعتين غابت عنا أرضها؛ ولكن لم أقل كما قال الشريف الرضي:

وتلفتـــت عينـــي فمـــذ خفيـــت عنـــا الطلـــول تلفـــت القلـــب

وبعد خمس ساعات ظهرت لنا أرض جزيرة صقلية، وفي نحو الساعة الثامنة من صباح الغد أرسينا في مرسى مسينه، وكان فيه يومئذ بوارج ملك نابولي لحصار البلد، فكانت تطلق المدافع عليه ويأتيها جوابها من القلعة، فلذلك لم نقم بها إلا بعض دقائق. ويقال: إن سكان صقلية الأقدمين كانوا من إسبانيا، وكان يقال لهم «سيكاتي»، ثم قدم إليها الأطروسكان من إيطاليا في سنة ١٢٩٤ قبل الميلاد، ثم استوطنها الفينيقيون واليونانيون، ثم جاء القرطاجنيون واستولوا على الجزيرة كلها إلى أن أخرجهم منها الرومانيون، وفي سنة ٨٢١ للميلاد فتحها المسلمون وجعلوا مقر الحكومة في بالرمو، ولبثوا فيها مائتي سنة إلى أن أخرجهم منها الأمير روجر الروماني، وفي تاريخ الرومانيين لغيبون أنها فتحت في زمن المأمون في سنة ٨٢٣، وزعم بعض المؤرخين أنها كانت متصلة بالأرض ففصلتها الزلازل المتتالية. وفي نحو الساعة الحادية عشرة من صباح الإثنين بلغنا «نابولي» وهي مدينة ظريفة مشهورة بكثرة العواجل

والملاهي والحظ والمتنزهات الزهية والفاكهة الرخيصة الطيبة. وفيها عدة كنائس حسنة، وأحسن طرقها حيث الحوانيت العظام الطريق المسمى توليدو. ولولا أن مملكة نابولي عرضة للزلازل لكانت أحسن بقاع الأرض لخصبها واعتدال هوائها. ثم سافرنا منها في ذلك اليوم فوصلنا إلى شيفتا فكيه في صباح الثلاثاء، فأقمنا فيها ساعات وليس فيها شيء يقر العين. ثم سافرنا منها يوم الثلاثاء وقد تزودنا بعض فاكهة فوصلنا إلى ليفورنو في صباح الأربعاء. وظاهر هذه المدينة للناظر دون ظاهر نابولي؛ لكنها من داخل أكبر، وطرقها أوسع، وبناؤها من الآجر المحكم، وديارها شاهقة؛ إلا أنها ليس لطرقها ممشى على الجوانب للناس، وكذا هي مدينة نابولي ومرسى ليفورنو حسن وفيها ملهى وعدة أعلام ومدراس لليهود يقال: إنه أعظم مدراس لهم في أوربا ومكتبة موقوفة، وهي ذات أشغال وتجارة، وأهلها نحو ٧٦,٠٠٠، وفي القرن الثالث عشر لم تكن إلا قرية حقيرة. ثم سافرنا منها إلى «جينوى» فبلغناها فجر الخميس؛ وهذه المدينة مشهورة بكثرة الصروح العالية والديار الشاهقة جدًّا، وفيها قصور كثيرة من المرمر وبساتين ناضرة وفاكهة طيبة، وهي في نجوة من الأرض متفاوضة الوضع وطرقها أضيق من طرق ليفورنو، ولهذا كانت عواجلها أقل من تلك إلا أن الشمس لا تستحكم في مسالكها لكثرة شرفات الديار المائلة فكأنها مبنية من أصلها لحجب الشمس. وفيها حوانيت بهيجة ولا سيما حوانيت الصاغة، ولها قنطرة قديمة شاهقة جدًّا إذا نظرت منها إلى الحضيض هالك ارتفاعها. وفيها الفاكهة الطيبة والخبز النظيف ومحل قهوة في غيضة أنيقة، وهي في الحقيقة نزهة للناظرين وما أشبهها إلا بدمشق، وليس على من يدخلها أن يدفع شيئًا، كان تأسيسها في سنة ٧٠٧ قبل الميلاد، وكانت

في زمن دولة الرومانيين حافلة غنَّاء، وفي القرن الحادي عشر امتدت تجارتها بحرًا وبرًّا، وفي مدة الحرب الصليبية وذلك نحو سنة ١٠٦٥ صارت مضاهئة لفينيسيه في الغنى والثروة حيث كانت موردًا للعساكر التي كان يراد تجريدها إلى البلاد الشرقية، ثم رفع فيها من الفتن والتحزب ما أضعف دولتها فدخلت في حماية دولة فرنسا، ثم في عهدة شارلكان (أي كارلوس الخامس الشهير) فاستخلصها من الفرنسيس وصارت تتحزب مع إسبانيا عليهم، وفي سنة ١٧٩٦ استولى عليه الفرنسيس أيضًا، وفي سنة ١٨٠٠ حاصرهم فيها الإنكليز والروس وعساكر أوستريا حصارًا شديدًا فاضطروا إلى تسليمها، ثم رجعت إلى عهدة فرنسا، وفي سنة المهادنة -وهي سنة ١٨١٤- سلمت لملك سردينية.

ثم سافرنا منها يوم الخميس بعد الظهر فبلغنا مرسيلية في الساعة العاشرة من صباح يوم الجمعة، ولهذه المدينة مرسى عظيم يسع ألفا ومائتي سفينة، ولا يزال مشحونًا بالبواخر، ولكثرة ورود المراكب إليها قطعوا خليجًا من البحر ووصلوه به، وفيها عدة مكاتب، وملهى يعد من أحسن ملاهي أوربا، وبستان للنباتات، ومكتبة موقوفة، ومصرف فسيح أعني البورس، وفي ضواحيها أكثر من خمسة آلاف دار، ولها تجارة واسعة مع المشرق وإفريقية وأمريكا وإنكلترا والبحر الأسود، كان تأسيسها في سنة ٥٩٩ قبل الميلاد، وكانت في الزمن القديم ملحقة بولايات الرومانيين، ومنها توصلوا إلى فتح فرنسا في هذه المدينة محال عظيمة للقهوة مغشاة حيطانها وسقوفها بالمرايا والنقوش والتماثيل، وأمامها مصاطب يقعد عليها الناس، وإن لم يشتروا شيئًا منها، وأهل المدينة يصرفون فيها أكثر أوقاتهم كل طبقة منهم تنتاب منها محلًّا خاصًّا، وفي بعضها ترى قيانًا حسانًا يغنين وهن كاشفات الصدور، وعند

ملهاها عدة ديار تسكنها المومسات يدعون الغادي والرائح، وهي وسخة الحارات والأطراف؛ لكنها بهية الحوانيت والديار، مبلطة الطرق، وليس في ديارها مراحيض؛ وإنما يجمعون أقذارهم في وعاء إلى أن يأتي رجل معه عجلة وعليها برميل كبير فيناولونه الوعاء فيفرغه في البرميل وما يجمعه فيه، فإنه يبيعه لتدميل الأرض، ولا أعرف مدينة أخرى بهذه الصفة، ومنهم من يقذف بالأقذار أمام البيوت ليلًا، فلهذا يشم الماشي في أكثر طرقها رائحة كريهة وماؤها في بعض الديار أجاج ولعدم الاكتفاء به نهروا إليهًا نهرًا كبيرًا من مسافة نحو ستين ميلًا، فأحوج ذلك إلى أن ينقبوا له بعض الجبال، ثم بنوا عليه جسرًا عظيمًا يشتمل على ثلاثة صفوف من القناطر بعضها فوق بعض، وفي كل صف خمسون قنطرة، وارتفاع أعلاها من الحضيض نحو مائة وعشر أذرع، وعرض الماء الجاري فيه تسع أذرع ونصف في علو مثلها، وجميع أحجار هذا الجسر ضخمة جزيلة، وبعد إجراء هذا النهر كثرت عندهم الحياض والعيون ووفرت الفاكهة والبقول، وصارت بساتينها في غاية الريع والنضارة، وفي هذه المدينة عدة عرصات محفوفة بالشجر يتمشى فيها الناس وتضرب فيها آلات الطرب العسكرية، وفي أحد هذه المماشي حوانيت تفتح خمسة عشر يومًا في السنة تجمع إليها جميع التحف والطرائف، وأكثر الباعة فيها بنات حسان، فإذا مررت بحانوت حرت بين أن تنظر إلى البائعة أو إلى البياعة، وفيها يوجد أيضًا محال للعب والغناء واللهو ومشاهدة غرائب الأشياء مصورة على خارج المحل دليلًا على وجود أعيانها في داخله، وقد أخبرني من يوثق به أنه شاهد فيها امرأة ورجلًا قد عصب على عينيها بمنديل؛ لكيلا تبصر الحاضرين، ثم جعل يأخذ من بعضهم خاتمًا ونحوه ويجعله في كفه مطبقة عليه، ثم يسأل المرأة عما بيده

فتجيبه ولا تخطئ، وأنه أخذ مرة درهمًا قيمته عشرون فرنكًا، وسألها فقالت: في يدك درهم قيمته عشرون فرنكًا، فقال: ويحك ليس في هذه البلاد درهم على هذا الضرب، فقالت: بلى؛ ولكنه من ضرب الصين، وكان كذلك، وسألها مرة أخرى عن درهم فرنساوي فأجابته بأنه يساوي كذا، وقد ضرب في عام كذا، فلما سمعت ذلك أعظمته لما أنه كان أول مرة طرق مسمعي، ثم لما شاهدته عدة مرار بمرأى العين في باريس ولندرة سقط اعتباره من بالي؛ إذ تحققت أن مع السؤال الذي يلقيه الرجل على المغمض العينين ينبهه على نوع ذلك الشيء المسئول عنه بلحن من القول لا يدركه إلا هو، وعلى كل حال ففي التلقين والتلقن حذق ودربة.

وفي الجملة: فإن مرسيلية إنما يستحسنها من قدم إليها من البلاد المشرقية؛ لا من باريس ولندرة.

ثم سافرنا من هذه المدينة في الساعة الرابعة يوم الأحد في سكة الحديد، فكان البحر عن شمالنا والجبال والغياض عن يمننا، فلم يكن منظر أبهج منه! وأظن أن بلاد فرنسا أكثر بلاد الدنيا غياضًا وحدائق، وكثيرًا ما كنا نسير في حافلة المجد نحو ساعة ونصف بين الأجم، والسبب في تكثيرها احتياجهم إلى الوقود؛ بخلاف بلاد الإنكليز، فإن أكثرها سهول ومروج وحقول لاستغنائهم عن الحطب بفحم الحجر، وفي فرنسا الجنوبية تنبت جميع الأشجار المعروفة عندنا، وذلك كالتين والبرقان والعنب والزيتون والليمون مما هو معدوم في بلاد الإنكليز؛ غير أن كروم العنب عندهم لا تبلغ في النمو والكبر كروم الشام. وفي مسافة الطريق دخل الرتل في قبوة مظلمة منقورة في الصخور،

فسار فيها نحو عشر دقائق، فكان أمرًا عظيمًا لمن لم ير مثله من قبل. ثم بلغنا مدينة ليون بعد سفر نحو أربع ساعات لم يغب فيها عن أبصارنا ذلك المنظر الأنيق، وهذه المدينة وسخة الطرق والأزقة؛ غير أنها حسنة الموقع وحوانيتها واسعة عظيمة، وفيها معامل لثياب الحرير والقماش، وحريرها مشهور، فأما الشريط ونحوه فإنه يصنع في صنت إتيان ولها مماش حسنة، وملهى عظيم، ومكاتب عديدة، ومدرسة ملوكية، ومحكمة جليلة هي من فاخر البناء، ومكتبة موقوفة ومتحف وبستان للنباتات، وعدد أهلها نحو ٣٣٠,٠٠٠ وفيها يجتاز نهران أحدهما يقال له «رون» والثاني «صون» تسير فيهما بواخر مشحونة بالبضائع والميرة، وتمر على جملة مدن من بلاد فرنسا ثم يلتقيان ويصيران نهرًا واحدًا ممتدًّا إلى بحر مرسيلية، ولا تكاد تمضي سنة من دون أن تزخر شواطئه على الأرضين، وقد طغى في هذه السنة حتى كانت الناس تسير في شوارع المدينة في قوارب؛ فهدم كثيرًا من البيوت والجسور، وأهلك كثيرًا من الماشية والناس، وأتلف الغلال فيما جاوره، فانتخى سائر سكان فرنسا إلى إمدادهم وإغاثتهم، واقتدى بهم الإنكليز أيضًا. وعلى هذا النهر جسور من حديد وحجر وعدة مغاسل للنساء.

ثم سافرنا منها في الساعة الرابعة من يوم الثلاثاء في حافلة المجد المعروف بالدليجانس، فبلغنا برجا في الساعة السادسة من اليوم الثاني، ومنها سافرنا في سكة الحديد إلى باريس فوصلنا إليها في الساعة الرابعة من صباح الخميس، وسيأتي وصف هذه المدينة بعد فراغي من وصف إنكلترا إن شاء الله، وإنما أقول هنا: أنَّا لما وصلنا إليها كانت السياسة جمهورية؛ إذ كانوا قد خلعوا الملك لوي فيليب عن الملك، ففر بنفسه وأهله إلى بلاد الإنكليز ملجأ الفارين ومأمن

القارين ومهما حصل فيها وقتئذ من الشغب وسفك الدماء، فلم يكد الإنسان يتميز المفجوع من أهلها من المغبوط، فإن منتزهاتها بقيت غاصة بالناس، ثم بعد أن لبثنا يومين في باريس سافرنا في سكة الحديد إلى كالي أو كالس، وذلك في الساعة الثانية بعد الظهر من يوم الأربعاء الواقع في السابع والعشرين من أيلول فبلغناها بعد الساعة السابعة مساء؛ وكالي هذه إحدى فرض فرنسا المقابلة لإنكلترا، وهي دون بولون، وكانت سابقًا تحت استيلاء الإنكليز أيام حروبهم مع الفرنسيس، وبقيت في أيديهم مائتين وثلاث عشرة سنة، ثم استرجعها الفرنسيس في عصر الملكة ماري سنة ١٥٥٨، فلما بلغها الخبر أظهرت من الحزن الشديد ما قيل أنه كان سبب موتها، وقالت: أموت وفي قلبي اسم كالي مكتوبًا، فكانت كالي عندها أخت حتى عند الفراء، وبقيت نورماندي وأنجو ومين وطورين وبولتو وبريتاني وغيرها بيد الإنكليز نحو سنة ٢٩٢، واوفق لنا أن وجدنا باخرة معدة للسفر إلى لندرة فركبنا فيها وسارت ماخرة بنا، وأول ما دخلت في نهر التامس انحجبت عنا الشمس واكتسى الجو سحابًا، وكان يومًا ماطرًا مظلمًا يقضي بالأسف على شمس مالطة، وهذا النهر يختلط بالبحر الملح وتسير فيه الشمس نحو خمس ساعات إلى لندرة، والسفر فيه بهيج من جهة أن السفينة تسير فيه سيرًا خفيفًا لا اضطراب فيه، وترى فيه من البواخر الصاعدة والمنحدرة ما يشغل الخاطر، وله عند الإنكليز شأن عظيم. ويحكى عن الملك جامس الأول الذي ألحق حكومة مملكة سكوتلاند بإنكلترا أنه لما نقم على أهل لندرة أشياء أنكرها، أراد أن ينتقل ديوانه منها فقال له ضابط البلد -ويقال له بلغتهم: مير-: إذا كان لا بد من ذلك فلا تنقل نهر التامس معك. وهو كلام بليغ يشير إلى أن أهل المدينة

ربما يستغنون عن الملك بوجود هذا النهر؛ لأنه من أعظم الأسباب الميسرة للتجارة، ولولاه لما حصلت لندرة على هذه الثروة والسعة. والمأكول والمشروب في هذه السفن التي تنقل الركاب من فرض بلاد فرنسا وأكثرها للإنكليز غاليان جدًّا؛ فإن قنينة الشراب في تلك الفرض تساوي فرنكًا، وفي السفن ستة فرنكات، وقس على ذلك. ثم لما بلغنا لندرة أخذت أثقالنا إلى الكمرك وفتشت فلم يجدوا فيها ما يوجب الأداء؛ إلا أنا أدينا على كل صندوق وكل حاجة مستقلة نحو خرج وغيره نصف شلين، ثم تبوأنا محلًّا في إحدى الديار، وبعد أن استرحنا سافرنا منها في سكة الحديد إلى بلدة وير بقصد المسير منها إلى القرية التي يسكن فيها الدكطور لي الذين اعتمدته الجمعية لأن يكون معارضًا ترجمتي بالأصل الذي أترجم منه، وكان للمذكور شهرة عظيمة عند الإنكليز في معرفة اللغات الشرقية، وكان في مبدأ أمره نجارًا لكنه أكب على العلم وقد فات الثلاثين سنة، فحصَّل معلومات غير يسيرة؛ غير أنه لم يتمكن من اللغات التي حاولها، وسيأتي ذكره بعد هذا، وحيث كان اسم القرية المذكورة مكتوبًا على أثقالنا، فلما بلغ الرتل إليها وضعوها في الموقف، ونحن لم نشعر بذلك وبقينا سائرين فيها حتى إذا وقف الرتل مرة ثانية سألنا عنها، فأخبرنا بأنا تجاوزناها بنحو ثلاثة أميال، فرجعنا إليها مشاة فوجدنا حاجاتنا سالمة، فسرت في طلب شيء للأكل فلم أجد فيها مطعمًا، فقلت لأحد الوقوف: ألا نجد طعامًا هنا؟ قال: هلم معي، فأخذني إلى الجزار وذلك لأن مرادف لفظة الطعام عندهم يستعمل غالبًا في اللحم، قلت: إني أريد شيئًا آكله، فدلني على حانوت بقربه، فتوجهت فلم أجد إلا الخبز، قلت: ما الخبز وحده أريد، فدلني على دكان آخر، فذهبت فوجدت به الفطير فقط فعدت

خائبًا، ولقيت بعض الشرطة فقلت له: ألا تهديني إلى محل للأكل؟ فدلني على موضع زعم أنه شهير يقصده جميع المسافرين، فتوجهت فوجدت صاحبته امرأة ضخمة فظة تحاول إظهار السيادة والإمارة في وجه قاصديها، فسألتها: هل عندك ما يؤكل؟ قالت: ما عندي سوى البيض، فتبلغنا بما عندها ورجعنا إلى الموقف حتى جاء الرتل الذي يسير إلى رويستان؛ وهي قرية جامعة، وقد ذكرت هذه الحادثة هنا دليلًا على ما يرى من الفرق بين بلاد الإنكليز وفرنسا، فإن القرى الحافلة في هذه -ولا سيما التي يقف فيها المسافرون- يوجد فيها كل ما يشتهي الإنسان من المأكول والمشروب، وحين كنا نسافر فيها وتقف حافلة المجد كنا نرى النساء يتسابقن إلينا حاملات لأطباق الفاكهة الطيبة ويعرضنها على السفر، وكنا نجد أيضًا في المطاعم كل ما تشتهيه الأنفس. ثم سرنا إلى رويستان، ومنها إلى قرية بارلي؛ وهي على بعد ثلاثة أميال منها، فبلغناها في الساعة الحادية عشرة ليلًا، فتوجهت إلى دار الدكطور لي فوجدته مستعدًّا لتلقي الأحلام السعيدة، فقال لي: قد كتبت إليَّ الجمعية تخبرني بقدومك، فينبغي أن تذهب الليلة لتبيت في خان القرية، فبتنا فيها وفي الغد كتب إلى الجمعية يخبرهم بأنه أكرم مثواي وعنى بإنزالي منزلًا مريحًا، فشكروه على عنايته، وكانت مدة سفري من مالطة إلى هذا المنفى ثمانية وعشرين يومًا.

ثم قبل الشروع في الترجمة وفي ذكر شيء من أحوالي، ينبغي هنا أن أقدم كلامًا في أحوال إنكلترا على وجه الاختصار، فإن تفصيل ذلك مرجعه إلى كتب التاريخ والجغرافية، فأقول: إن الرومانيين كانوا يسمونها: بريتانيا، وفي اللاتيني المتعارف تسمى إنكليا، وفي لغة أهلها: إنكلاند، ومعنى لاند أرض، وحين يذكرون بريتانيا فإنما يعنون بذلك إنكلترا ووالس وأرلند، وهي منقسمة إلى

اثنين وخمسين كونيا -أي ولاية- منها اثنتا عشرة ولاية هي الأصول، وأشهر مدنها دوفر ونرويش وهل ونيوكاستل وليفربول وبرستول وفلموث وبليموث وبورتسموت وإكسفورد وبرمنهام ومنشستر وشفيلد وتوتنهام وكمبريج ويورك وباث وشلتنهام. وهي كثيرة معادن الحديد والفحم والقصدير والرصاص والنحاس، وحيواناتها ضليعة حسنة الصورة، وبها مراع واسعة ومروج نضيرة، وفيها نحو خمسين نهرًا تصلح للسفر أشهرها التلمس، وجبالها قليلة لا يبلغ أعلاها أكثر من مائة ذراع، وطول الجزيرة كلها لا يزيد على ثمانمائة ميل، وعرضها في بعض الجهات ثلاثمائة وفي بعضها أقل.

وقبل فتح الرومانيين لها لم يكن عنها خبر يعتمد على صحته، وقد غزوها مرتين وذلك في سنة ٢٦ و٥٥ للميلاد، وكان عدد أهلها حينئذ نحو مليون، وفي سنة ١٨٥١ بلغ عددهم ١٧,٤٥٢,٢٦٢ وعن غيبون أن الرومانيين كانوا يحسبون بريتانيا مغاصا للؤلؤ وهو الذي دعاهم إلى فتحها، وبعد حرب أربعين سنة استولوا على أقصى أطراف الجزيرة. وعدد من ولد فيها وفي والس في سنة ١٨٥٤ بلغ ٦٣٤,٥٠٦ أنفس، وعدد من مات ٢٣٨,٢٣٩ وفيها ١١,٠٧٧ إبرشية. ويقال أنها كانت في الزمن القديم متصلة بأرض فرنسا. ونقلت من جرنال التميس أنه يوجد في إنكلترا وأرلاند أربعة وخمسون قاضيًا في المحاكم العليا تبلغ وظيفتهم ٢٤١,٨٠٤ ليرة وثلاثمائة وخمسة وتسعون قاضيًا في المحاكم الأدنى تبلغ وظيفتهم ٢٩٢,٦٦٣ ليرة فتكون جملة القضاة ٤٤٩، وجملة وظائفهم ٥٣٤,٤٤٧ ليرة، قال: ولكبير القضاة عشرة آلاف ليرة في كل سنة، ولقاضي محكمة الاستدعاء ستة آلاف. ويوجد في بريتانيا ١٨,٥٨٦ من القسيسين المنتمين إلى الكنيسة المتأصلة و٥٨,٥٢١ من قسيسي الكنيسة

المتفرعة، وسيأتي بيان الفرق بينهما، و١,٠٩٣ من قسيسي الكنيسة البابوية و١,٤٧٧ من طلبة علم اللاهوت والمدرسين فيه؛ فتكون الجملة ٣٠,٦٤٧ وعدد فقهاء الشرع ١٨,٤٢٢ ما عدا ١٦,٧٦٣ ما بين وكيل دعوى وكاتب صكوك ونحو ذلك وعدد الأطباء ١٨,٧٢٨ ما عدا التلامذة الذين دخلوا في سلك المتطببين و١٥,١٦٣ ما بين جراح ودوائي، ويضاف إليهم أكثر من ألف ومائة من معالجي الأسنان و٤٣٠ صانعًا لآلات الجراحة، فأصحاب هذه الحرف الثلاث أعني القسيسية والفقهية والطبية ومن يتعلق بهم وينضم إليهم يبلغون ١١٠,٧٣٠ وعدد المؤلفين وأهل الأدب ٢,٨٦٦ منهم أربعمائة وستة وثلاثون مؤلفًا يكتبون لنا شري الكتب و١,٣٠٢ ما بين كاتب وناشر. وعدد أهل الصنائع الظريفة ٨,٦٠٠ من جملتهم الرسامون، وعدد المدرسين في العلوم أربعمائة وستة وستون، وعدد المهندسين ٣,٠٠٩ وجملة المشتغلين بالتعليم والتخريج ١٠٦,٣٤٤ منهم ٣٤,٣٧٨ رجالًا و٧١,٩٦٦ نساء، وفي عداد الأول ٢٣,٤٨٨ يعلمون في المكاتب و٤,٣٧١ يعلمون مطلق التعليم و٣,١٤٩ يعلمون الموسيقى و١,٥٣٠ يعلمون اللغات و٥٥٤ يعلمون الهندسة، وفي القسم الثاني أعني النساء ٤١,٨٨٨ يعلمن في المكاتب و٥,٢٥٩ يعلمن مطلقًا و٢,٦٠٦ يعلمن الموسيقى، ويوجد أكثر من الفيز من اللاعبين واللاعبات في الملاهي؛ فمن الرجال ١,٣٩٨ ومن النساء ٦٤٣ ومن أهل الموسيقى الرجال ٣,٦٦٨ ومن النساء ٤٣٢ وعدد الذين هم في الخدمة المدنية ٧١,١٩١ من سن عشرين سنة فصاعدًا منهم ٣٧,٦٩٨ في خدمة الإدارة المدنية و٢٩,٧٨٥ في خدمة دواوين الميري و٣,٧٦٨ في خدمة دولة الهند ومقامهم في بريتانيا.

ثم إني أخذت في أن أذهب إلى الدكطر لي في كل يوم لأترجم التوراة، ثم أعود إلى منزلي ملازمًا له، فلم تمض عليَّ أيام حتى عيل صبري؛ لأن هذه القرية التي قدر الله أن أسعد الناس بترجمتي فيها كانت من أنحس قرى الإنكليز، على أن جميع قراهم لا تليط بقلب الغريب لما سيأتي. ولم يكن فيها للأكل غير اللحم والزبدة المخلوطة بالجزر والخبز المخلوط بالبطاطس والجبن واللبن المذيق والبيض والكرنب، وذلك يغني عن ذكر ما هو معدوم فيها؛ على أن هذه اللوازم إنما كانت نفاية ما يوجد في المدن، ومن عادة الإنكليز أن يكون لهم بالقرب من القرى بليدة يباع فيها ما يلزم لهم من المأكول والمشروب والملبوس والأثاث، فيذهب إليها الفلاحون مرة في الأسبوع ويشترون ما يلزمهم، وقد يمر على البيوت ليلًا رجل ينفخ في البوق تنبيهًا على ذهابه إلى تلك البليدة، فمن شاء أن يشتري شيئًا كلفه به وجزاه على ذلك، وقد يمر أيضًا تجار بعجلات فيها نحو البن والشاي والسكر، أو يكون معهم راموز هذه الأشياء ليبعثوا منها للمشتري من حوانيتهم، وبمثل هذه الأسباب المتنوعة والصعوبة المبرحة يحصل الإنسان ما لا بد له لقوام عيشه. أما محار البحر والسرطان والإنكليس وهذا الذي يسمونه البسترا وهو أطيب ما يؤكل عندهم، وهو في شكل البرغوث وأكبر من السرطان، فلا وجود لها ألبتة، وأما السمك فلا يرد منه إلا مرة في كل ثلاثة أشهر، على أن جميع أصناف سمكهم مسيخة إلا صنفًا منها يقال له سمن، وهو طيب لكن لا بالنسبة إلى سمك بلادنا، وقد يضعونه في الثلج ليلًا ويعرضونه للبيع نهارًا، فربما كان عمر السمكة بعد صيدها أطول منه قبله، ولكن ربيب الثلج هذا لا وجود له إلا في المدن، ومن قدم إلى لندرة ورأى فيها تلك الحوانيت العظيمة والأشغال الجمة

والغنى والثروة حكم على جميع الإنكليز بأنهم أغنياء سعداء، ولكن هيهات فإن أهل القرى هنا كأهل القرى في الشام؛ بل هم أشد قشفًا، وكثيرًا ما تقرأ حكايات تدل على بؤسهم وقشف معيشتهم مما لا يقع في بلاد أخرى. فمن ذلك حكاية عن حائك شكا حاله إلى إحدى النساء المخدومات فقال: يا سيدتي، إنك حائك و-أن لي امرأة وثلاثة أولاد بقوا من عشرة فجعت بهم ودخلي من كدي الليل والنهار لا يزيد على سبعة شلينات في الأسبوع، ولكن علي أن أعطي منها شلينًا واحدًا لأجل النول وأربعة في الشمع الذي أسهر عليه، فقالت له: وكيف تعيش على هذا الدخل القليل، قال: على قدر الإمكان، ألا وقد مضى علينا ستة أشهر لم نشتر فيها رطلًا واحدًا من اللحم، بل لا نقدر على مشترى الحليب إلا بالجهد، فجل طعامنا إنما هو الشعير وحساء الماء، وقد يكون لنا في بعض أيام الآحاد إدام من البطاطس، أمَّا أنا فلا أبالي فإني قد ألفت البؤس والضنك، ومذ سنين عديدة لم أعرف شيئًا من الدنيا سوى الكد والكدح المبرح على قلة الأجرة، ولكن همي بالأولاد وبأمهم النحيفة اهـ. فقوله: أنه لم نقدر على شراء الحليب مع كونه في الريف أرخص الأشياء بالنسبة إلى غيره -يغنيك عن مزيد البيان فيما يكابده هؤلاء الناس، وكثيرًا ما تقرأ أيضًا في صحف الأخبار عن أناس تركوا أولادهم من الإملاق أو ماتوا من الجوع والبرد، أو النوم على الأماكن الندية القذرة أو اعتفدوا فماتوا جوعًا، نعم إنه يوجد مستشفيات وملاجئ يقوم بها الأهلون إمدادًا للفقراء والعاجزين ونحوهم، إلا أنها ربما كان عدد من فيها لا يقبل الزيادة، أو كان اللبث فيها ضنكًا أو الدخول إليها صعبًا ونحو ذلك. وقد يبلغ من فقرهم أنهم يتركون أطفالهم بغير معمودية لئلا يعطوا القسيس مصروفها. وأعرف في

القرية المذكورة أولادًا كثيرين لم يتعمدوا مع أنهم من أتباع الكنيسة المتأصلة التي توجب المعمودية، ولا تأذن لمن مات غير معمد أن يدفن في مدافنها فتنزله منزلة المنتحر. وسبب فرط فقر الفلاحين هنا هو كون الأرض قد دحاها الله تعالى لأن تكون ملك الأمراء والأشراف فقط فيستأجرها منهم أناس مأمونون، ويستخدمون بعض الفلاحين في حرثها واستغلالها، فلهذا لن تجد في القرية أحدًا ذا رواء ورياش إلا مستأجر الأرض وقسيس القرية على أنه لا يلي شيئًا من أمور أولاده الروحيين سوى الخطبة فيهم يوم الأحد؛ لأنه يستخدم تحت يده قسيسًا يعطيه نحو ثمانين ليرة في السنة، ويلقي عليه أحمال الكنيسة، وهذا المبلغ هو دون وظيفة طباخ الأسقف في بلاد الإنكليز، فعلى هذا القسيس أن يعمد أولاد الرعية، وأن يدفن الموتى منهم ويزوج أحداثهم ويعود مرضاهم وغير ذلك.

وعدد ملاك الأرض في إنكلترا نحو ستين ألف عيلة لا غير، وقلما يذوق هؤلاء المساكين اللحم، فجل أكلهم الخبز والجبن؛ فجزار القرية لا يذبح شاة أو بقرة إلا مرة في الأسبوع، ولا يبيع من اللحم إلا نصف رطل أو ربعه، وإذا ذبح شاة فلا يسلخها ويجزر لحمها إلا بعد يوم والبقرة بعد يومين أو ثلاثة، نعم إنه قد يربي أحدهم خنزيرًا في دويرته ويذبحه ويتخذ لحمه كالقورمة التي تتخذ في بر الشام، ويطعم منه في أيام الآحاد، ومن كان ذا يسر قليل اشترى قطعة لحم في يوم السبت وطبخها وتبلغ بها عامة الأسبوع باردة؛ إذ ليس تسخين الطعام مألوفًا عندهم، فهو أحرى أن يأكلوه بائتًا مذ أيام من أن يسخنوه، ولما طلبت من المرأة التي كنت نازلًا عندها تسخين طعام بقي لي من الغداء لم نكد تفهم مني إلا بعد شرح وتفسير، وراح كل منا يتعجب من

صاحبه. وليس في القرى مواضع للهو والحظ، وإذا أرادوا اللهو عمدوا إلى أجراس الكنيسة يضربونها، فتقوم عندهم مقام آلات الطرب، ومن الحظ عندهم أن يجلس الرجل مع امرأته ينظران إلى الخنانيص التي يربيانها، أو إلى ما يزرعانه من خسيس البقول في عرصته، فإن لكل منهم في الغالب بضع أذرع من الأرض أمام بيته يزرع فيها نحو الفجل والكرنب وما أشبه ذلك، ولولا ذلك لكانت عيشتهم شرًّا من عيشة البهائم، وقد ترى في القرية دكانًا فيه نفاية ما يباع من الشمع والصابون والسكر والبن والشاي، وبيتًا حقيرًا يباع فيه شيء من البصل والبطاطس والحلويات الرديئة والتفاح المسيخ تنظرها من طاقة البيت، ولو اشتريت ذلك جميعه لما بلغت قيمته خمسين قرشًا، وفي أوان الشتاء لا يمكن للإنسان أن يخرج من منزله لاستنشاق الهواء، وذلك لكثرة الوحل في الطريق، فقد يمكث عدة أيام رهين بيته، وليس في القرى خيل أو حمير أو بغال أو عواجل تكرى، فليس الأمر ركوب النعل، وقد يكون لبعض المتشبعين عجلة يحركونها بأرجلهم إذا أرادوا أن يذهبوا من قرية إلى أخرى، فتجرى بهم من دون حصان ولا حمار، وبعضهم يكون له عاجلة صغيرة مفتوحة يجرى بها حصان صغير، فمثل ذلك لا يدفع عليه شيء للميري، فأما العواجل المعتادة والخيل فلا بد من الأداء عليها كما سيأتي بيانه في محله، وكنت كلما اضطررت إلى المؤنة ذهبت إلى البليدة ماشيًا، ومرة اضطررت إلى أن أذهب في التابوت الذي ينقل فيه الدمان لكنه كان فارغًا، وعلى فرض أن يسكن غني إحدى هذه القرى فلا يمكنه أن يتنعم بغناه؛ إذ لا يجد فيها إلا ما يجده الفقير، إلا أن يجلب مؤنته من لندرة وغيرها، ويعلم الله أني مدة إقامتي في تلك القرية المشئومة لم يكن لي هم إلا بتحصيل لوازم المعيشة، فكنت

أجلب بعض القطاني من كمبريج وبعض النقل من رويستان والمزر من لندرة في سكة الحديد، ولكن لما وجدته غاليًا اقتصرت عن جلبه، فاستولى عليَّ ضعف المعدة، ووهن في ركبي لم أحس به في عمري قط، فإن مزر القرى رديء إذ ليس منه إلا ما ينبط بالمنبطة دون المرعى في زجاج، وهو كالدواء سواء؛ إلا أنه غير نافع، وقد غشي عليَّ مرة في دار الدكطور لي وأنا أترجم، فأمر خادمته بأن تتداركني بكسرة خبز مشوية. أمَّا الصيف فإنه وإن يكن غير مزهق إلا أنه منغص لعدم وجود البقول المرطبة فيه ولعوز الفاكهة كما ستعلم ولا سيما أن أكثر شرب أهل الريف إنما هو من مناقع من ماء المطر وأكثرها يعلوه الطحلب، فإذا نشفت عمدوا إلى الآبار وهي قليلة يدخرونها إلى الحاجة، وهي أيضًا من المطر، إلا أن الإنكليز قلما يشربون الماء فإنهم يستغنون عنه بالجعة، وقد مضى علينا في الصيف نحو شهرين لا نذوق فيهما شيئًا من الفاكهة والخضرة إلا ما ندر، وفي شهر نيسان انقطع عنا المذيق الذي كنا نشتريه لأجل القهوة؛ لأنهم كانوا يسقونه الخنازير ولا يبيعونه، فاضطررنا إلى أن نتوسل بإحدى النساء لتشفع فينا عند صاحبة البقرة في إمدادنا كل يوم بما يكفي للقهوة فقط، ففعلت ثم جاءت مبشرة لنا بقبول خالص شفاعتها في المذيق، وأن صاحبة البقرة رضيت بأن تبيعنا كل يوم بنصف بيني تفضلًا وتكرمًا، فأوسعناها شكرًا وثناء ومطأطأة رأس وانحناء. وفي هذا الشهر المبارك لم يكن يوجد شيء من الفاكهة ولا من البقول، وكانت البصلة الصغيرة تباع بيني مع أن الحقول كلها كانت ناضرة زاهية، فالمار فيها هو كراكب البحر وهو ظامئ، وأكثر ما يزرع الإنكليز في حقولهم إنما هو القمح والشعير واللفت والبطاطس، وأصل جلب هذه إليهم من أميريكا في سنة ١٥٨٦، فأما البقول

فيزرعونها في عرصات الديار لمؤنتهم فقط وهي قليلة جدًّا، ولما كان جل علف البقر من اللفت كان لحمها ولبنها لا يخلوان من طعمه، وإذا زرعوا البقول فلا بدَّ وأن يضعوا معها شيئًا من الملح والجير، ويكثرون من تدميلها فلهذا لا تكون زكية؛ إلا أنها تنمو نموًّا فاحشًا؛ فإن الفول قد يعلو مقدار قامة الربعة، وكذا اللوبياء والقمح والشعير والرشاد يبلغ أطول من ذراع، ونحو ذلك الخس والنعناع والكرفس، وقد تبلغ الكرنبة قدر الجرة الكبيرة، وتكون التفاحة أو الإجاصة نحو البطيخة الصغيرة، وقس على ذلك البصل والكراث، حتى أن الحيوانات البرية والبحرية تكبر عندهم غاية الكُبر، فإن السرطان يكون في قدر رأس الآدمي، وقد وزن مرة ديك حبشي فبلغ أربعين رطلًا، ورطل الإنكليز نحو ١٥٠ درهمًا، وكان ارتفاعه ثلاثة أقدام. وأصل جلب الجزر إلى هذه البلاد كان من هولاند ولم ينبت هنا قبل سنة ١٥٤٠، ولكنه لم يكن أولًا في هذا الكبر، وأصل جلب القنبيط كان من جزيرة قبرس، وكان منذ ستين سنة يرسل منه من هنا إلى بلاد البورتوغال على سبيل الهدية والطرفة ويحرثون على الخيل والبقر جميعًا، وحين يزرعون القمح وغيره يمدون خيطًا من أول الحقل إلى آخره حتى نأتي الإنلام مستقيمة، وفي كثير من البقاع يخافون عليه من آفة تعرض له من الدود فيزرعون بينه خسيسًا سميًّا ليقتل الدود، فإذا حصدوا القمح حصدوا معه الحشيش أيضًا وباعوه على حدته، وربما أغفل فبقي مختلطًا بالقمح وطحن معه، فقد قرأت في كثير من صحف الأخبار أن كثيرًا ماتوا من الخبز، وهذا هو أيضًا سبب وضعهم الملح مع البقول، فاعجب لقوم يطبخون طعامهم بلا ملح ويملحون مزروعاتهم ويسمونها. ومما لا ينبت عندهم شجر البردقان والليمون الحلو والحامض وقصب السكر والموز

واللوز والفستق والتين والمشمش والخوخ والدراق والصنوبر والتمر والرمان، وهذا الأخير لا يعرفون ماهيته والصبار والآس والزيتون والبطيخ والقثاء والباذنجان والباميا والملوخية والحمص والعدس والماش، وقلَّ وجود الخرشف والخيار والسفرجل وشجر التوت لا يرى إلا للفرجة، والطيب من فاكهتهم إنما هو الأجاص والتفاح، وقد يكبران حتى تملأ الواحدة منهما الكف، وهذا الأخير يدوم الشتاء كله في المطامر، ولكن يباع في القرى على قلة، وأصل جلبه إليهم كان من بر الشام وذلك في سنة ١٥٢٢، فأما البردقان فيرد إلى المدن الكبيرة من إسبانيا والبرتوغال، وكذا العنب، وقد يربون شجرهما في بيوت من زجاج ويسخنونها بالنار؛ لأن حرارة هوائهم لا تكفي لإنباتهما، ولكن يكون سعره أغلى من سعر المجلوب إليهم، وما ينبت في غير هذه البيوت من العنب فإنه يبقى حثرًا؛ وهو ما لا ينوع ويبقى حامضًا صلبًا. وعندهم ثلاثة أصناف من الثمار أو أربعة كحب الآس عندنا، وهي قليلة الجدوى ولا سيما كونها لا تقوى على الرياح، فأقل نسمة تذهب بها. وكذلك عندهم ثلاثة أصناف أو أربعة من البقول لا توجد عندنا، وهي أيضًا تافهة.

ويحق لي أن أقول بعد الاختيار والتحري أن جميع ما ينبت في بلاد الإنكليز هو دون ما ينبت في فرنسا في الطيبة والزكاء، وجميع ما ينبت في هذه هو دون ما ينبت في بر الشام، وما أرى العلة في ذلك سوى كثرة السرقين في الأرض وقلة الحرارة في السماء، نعم إن جميع ما ينبت عندهم هو أكبر جرمًا مما ينبت عندنا كما تقدم؛ ولكن شتان ما بين الكبر والطعم إلا أن الإنكليز يتنافسون في كل شيء ضخم.

أمَّا أنواع الرياحين والزهور والأشجار غير المثمرة، فكثيرة عندهم وعنايتهم بها أشد من عنايتهم بالبقول المأكولة؛ على أن جلَّ أزهارهم لا عرف له، غير أني رأيت عندهم جملة أنواع من الزهور ذكية الرائحة مما هو في مالطة لا رائحة له أصلًا، وكثيرًا ما يذكرها المؤلفون منهم في كتبهم وتلهج بها النساء في محاوراتهنَّ، حتى أن إحداهن سجنت مرة، فكانت صواحبها يهادينها بباقات من الزهر، وفي أعياد ميلادهن يطرفن به، فيغني ذلك عن طرف القماش والجواهر، فهي في الواقع صلة الرحم وسبب الوداد، وإذا رقصت امرأة في ملهى وأعجبت الحاضرين نقطوها بباقة، وعلى ذكر التنقيط يعجبني قول ابن المعتز في مليح جدر:

يا قمرًا جدر لما استوى ... فزاده حسنًا فزدنا هموم

كأنما غنى لشمس الضحى ... فنقطته طربًا بالنجوم

قلت: وأهل اللغة أهملوا هذا الحرف بهذا المعنى، والضمير في زاده يرجع إلى التجدير المفهوم من الفعل، وهو رد على الحريري حيث منع أن يقال جدر بالتشديد لكونه ليس للتكثير.

أمَّا أرض إنكلترا فكلها سهل محروث مزروع تشبه أرض البقاع في الشام، فلن ترى فيها بقعة واحدة بورًا، فكأنها جميعها لرجل واحد ذي عيال في ركونها لا يغادر منها محط قدم من دون منفعة، فلا ترى إلا غياضًا وحقولًا ومزارع ومروجًا وديارًا، والظاهر أن بلاد الإنكليز أعظم حرثًا وأعمر من بلاد فرنسا، وكل شيء فيها من أنام وحيوان تراه في غاية الريع والنمو، وكنت قبل حضوري إليها أحسبها كلها جبالًا لما كنت أسمع من شدة بردها، فإذا هي

قاع صفصف. وقرأت في بعض الأخبار أن قيمة ما تحصل من غلالها في سنة ١٨٤٧ بلغت ٥٤,٠٠٠,٠٠٠ ليرة، وقس على ذلك سائر السنين. وأحسن بقعة في الأرض يغادرونها مرعى للضأن ومسرحًا، فلهذا كان لحم الضأن عندهم فاخرًا جدًّا، ومع شدة عنايتهم بتربية الماشية فإنهم يحتاجون إلى جلب الجلود من الروسية والغرب الأقصى، وثمن ما يجلبونه منها يبلغ في السنة ١٥,٠٠٠,٠٠٠ ليرة يذهب نحو نصفها في عمل الأحذية والباقي في غير ذلك. وفي بعض الصحف أن في كل من إنكلترا وفرنسا يربي نحو خمسة وثلاثين مليونًا من الغنم، ومن كل من العددين يحصل قدر من الصوف متساو؛ إلا أن غنم فرنسا يحصل من لحمها أقل مما يحصل من تلك، وقد يبلغ الحاصل من إقليم شستر من الجبن مبلغًا وافرًا، وما يحصل من لبن البقر في فرنسا يبلغ مليون ليتر؛ ثمن كل ليتر نحو عشرة صنتيم، وما يحصل من لبن البقر في إنكلترا يبلغ ضعفي هذا القدر، ويباع بضعفي قيمة ذلك، والإنكليز يربون ثمانية ملايين من الماشية في أحد وثلاثين مليون جريب، والفرنسيس يربون عشرة ملايين في ثلاثة وخمسين مليون جريب. وجزارو فرنسا يذبحون في السنة غالبًا أربعة ملايين من الماشية تبلغ خمسين مليون كليوغرام، والإنكليز يذبحون مليونين، ولا يذبحون من العجل قدر ما يذبح عند أولئك. والحاصل في فرنسا من الحليب مائة مليون فرنك، ومن اللحم أربعمائة مليون، ومن الحرث مائتا مليون، والحاصل في إنكلترا من الحليب أربعمائة مليون فرنك، ومن اللحم خمسمائة مليون، فيكون الحاصل من كل بقرة في إنكلترا من اللبن واللحم فقط أكثر من الحاصل من البقرة في فرنسا من اللبن واللحم والحرث معًا، هذا ما نقلته وفيه نظر، ومع خصب أرضهم وكثرة

غلالهم -كما بيناه آنفًا- فإنهم يجلبون كثيرًا من المأكول والمشروب من البلاد الأجنبية، فقد قرأت أنه في مدة ستة أشهر جلبوا من البقر ١٢,٢٣٧ رأسًا، ومن الغنم ٢٩,٢٦٨، ومن البيض ٥٦,٤٥٤,٧٤٥ بيضة. وفي سنة ١٨٥٠ جلبوا من الجبن ٢٧,٠٠٠ طن. وفي سنة ١٨٤٨ جلب من أرلاند من البقر اثنان وثمانون ألفا وخمسمائة واثنان وتسعون رأسًا، ومن الغنم مائة ألف وثلاثمائة وستة وستون، ومن الخنزير ثلاثمائة واحد وثمانون ألفًا وسبعمائة وأربعة وأربعون، وقيمة ما جلب من البطاطس في عام واحد بلغت نحو عشرين ألف ليرة، وقس على ذلك الزبدة والفاكهة والقطاني، وبهذا يتبين لك ما يلزم لأعالي هؤلاء القوم وأسافلهم، وفي الحقيقة فإن إنكلترا قد ضاقت بأهلها، ولهذا يهاجر منها في كل سنة نحو مائتي ألف وخمسين ألفًا. وأحسن أقاليمها في النضارة والربع إقليم كنت، وفي كثرة أشجار الفاكهة دوفشير، وإذا دخلت حمى ششير فهرول.

أمَّا حيواناتهم فعلى نسق بقولهم من الكبر والضخامة؛ منها الخيل، وهي نوعان ضليع ضخم، وهو ما يستعمل في جر الأثقال؛ فترى الحصان كالبرج المرصوص، ويحمل أربعمائة رطل من أرطالهم، وثمنه مائة ليرة، والثاني: خفيف ممشوق، وهو للركوب والسباق، أو لجر عواجل العظماء، وربما سار في الساعة ثمانية عشر ميلًا، ويقولون: إن خيلهم أعتق من خيل العرب، وإن يكن أصل بعضها من تلك، ويقال: إنه في زمن الملكة اليصابت لم يكن في جميع مملكة إنكلترا أكثر من ألفي فرس وبقرهم تعظم في عظم جواسيس مصر، ولحمها طيب إلا أنه كثير الدم، وهي حسنة الخلقة والشكل، وكذلك ضمنهم تسمن سمنًا فاحشًا، وهي أيضًا مليحة ولكن ليس لها الأيا كغنم الشام،

ولعلها هي النوع الذي يقال له: القهد، والهر عندهم ظريف وهو أحرى بأن تحلق الحواجب على فقده من هر قدماء المصريين، أمَّا الحمير فإنها قبيحة وغير فارهة على قلة وجودها، ولا وجود للبغال عندهم وندر رؤية المعزى.

ومما منَّ الله به على هذه البلاد أن ليس فيها حيات ولا عقارب ولا رتيلًا ولا سوام أبرص، ولا ابن آوى يعوي في الليل، ولا نمس يأكل الدجاج، ولا بعوض يمنع من النوم، ولا براغيث في الربيع إلا نادرًا، ويكثر عندهم الجرذان تسمع شقشقتها وهي تجري تحت مخشب البيوت، وكذا البق لكثرة الألواح في منازلهم. قال في أبجدية الأوقات: هذا الجرذ الأسمر الذي يسمى جرذ نوردي غلطًا، هو أعظم رزيئة في ديارنا، وأصل مجيئه إلينا كان من بلاد العجم وبعض البلاد الجنوبية في أسية، كما هو الظاهر من كلام بالاس وغيره حيث قال: إنه في سنة ١٧٢٩ زحفت أسراب جرذان لا تحصى من البراري الغربية إلى أسطراخان حتى لم يمكن ردها بوجه ما، وفي أوسط القرن السادس عشر زحفت حتى دنت من باريس؛ إلا أن كثيرًا من جهات فرنسا لم يزل خاليا من هذه البلية.

فائدة في عمر الحيوان

قال بعض: إن الحصان يعيش من ثماني سنين إلى اثنتين وثلاثين سنة، والثور ٢٠، والبقرة ٢٣، والحمار ٣٣، وأصل نتاجه في بلاد العرب، والبغل ١٨، والشاة من الغنم ١٠، والكبش ١٥، والكلب من ١٤ إلى ٢٥، والخنزير ٢٥، والعنز والحمام ٨، والقط ١٠، والوز ٢٨، والببغاء من ٣٠ إلى ١٠٠، واليمام من ٥٠ إلى ٢٠٠.